يا رجل أنت شقيق الرئيس ..

وكأحد أبناء الدولتين راح ينتقل فيما بين أثينا وقبرص وهو يمهد لاستخدام أمواله التى تعرف على مقدارها عبر مساومات تفحصية خاضها مع محلات الصاغة وتجار المجوهرات.

ولم يكن فى حاجة إلى الانزواء بعيدًا عن حشمت أو الهروب منه حتى لا يطلع على ما يفعله، فقد أعفاه حشمت من ذلك بعد أن تحول إلى جثة طافية على سجاجيد غرفتهما بالفندق بملابسه الداخلية يقلب قنوات التلفاز ويكنس أطباق الطعام ويغازل العاملات الرشيقات، ويجذب سرورهن وضحكاتهن بمداعباته الصبيانية..

وكانت مقاهى المصريين ومن صادفهم من لبنانيين هى مقصده الدائم للعثور على بغيته من السلالات التى ينجذب إليها من أمثال عظمائه الخمسة. إلى أن جاءت اللحظة التى أحس فيها بعالميته وهو محاط فى جلساته المسبوغة بكرمه بعدد وفير من الشباب السورى والمصرى واللبنانى والتركى واليونانى.. وعندما أغدق عليهم كئوسه وأطباقه المجانية بكرم مبالغ فيه لاحظ أحدهم أنه لا يمد يده إلى كأس منها، ولما سألوه عن ذلك بادر فأوضح لهم السبب:

ـ «ليس لى إلا فى الحشيش.. ولكن من أين لى به مع أناس لا يعرفون إلا الخمر؟»

قالها وهو يبحث بطرف عينيه على من سينادیه: «طلبك عندى يا زلمة أو: تكرم عينك خيو حِّنا جاهزين بِكِلِّ طلباتك»

وسرعان ما تكررت حوله هذه النداءات التى غزت روحه كموسيقى حالمة، وسرعان ما رتب معهم سهرة على شرف صديق له سيأتى به من الفندق، وكان اللبنانى الأنيق مفتول العضلات ذو الشارب المغولى المعقوف أكرم سليمان، هو صاحب المكان دون أن يكون دافع التكاليف.

وفى السهرة التى أحيط فيها بالاهتمام والتدليل كان حشمت بركات يصوب نظراته

المتسائلة فى صمت نحو ابن النحال ليقول: «متى وأين عرفت كل هؤلاء أيها الإبليس؟»

وكانت إجابته الصامته فى خبث تقول ردًّا عليه: «لنا فى كل خرابة عفريت أيها الموتور»

وعندما طرح السورى سؤاله حول مدة تواجدهما باليونان أجابه السيد بلا اعتناء:

«أربعة أيام» فغمغم السورى «يبدو أنكما لا تتابعان ما يحدث فى مصر..».. ففقز حشمت نحوه منزعجًا: «مالذى يحدث فى مصر؟»

طمأنه الشاب:

ـ «لا تنزعج.. فعبد الناصر جمعهم عندكم فى فندق الهيلتون.. وسوف يحقن دماء الطرفين.. الفلسطينيين والأردنيين»

وراحو يتابعون عبر رواية هذا السورى قصة الأحداث الدموية التى تدور فى الأردن بين هذين الطرفين المتقاتلين والتى تناثرت فيها بقع الدم فلطخت وجه العروبة، وتحولت إلى قضية مزعجة راح عبد الناصر يمسك بخيوطها، ودعا كل الزعماء والرؤساء والملوك العرب ليمسكوا معه.

وبعد السهرة وفى طريق عودتهما إلى الفندق قال له السيد:

ـ «أنت تخسر كثيرًا بطول جلستك فى الفندق..»

فأجابه بهدوء: «لست خفيفًا مثلك يا نحال.. فلو بحثوا عن اسمك لوجدوه مشتقًا من النحلة التى تطوف كثيرًا ودائمة الزن وتلدغ ثم تهرب.. ومع ذلك، ففيك بعض العسل مثلها أيها الشيطان»

وقبل أن يخلدا إلى النوم وبعد أن أطفأ السيد جهاز التلفاز قال له:

ـ «أنا أفكر فى شراء سيارة مرسيدس باسمك ونسافر بها على الباخرة»

لم يعلق حشمت على ما سمعه، لكنه قال وهو يتثاءب:

ـ «الولد أكرم اللبنانى هذا.. ماله يعقف شاربه هكذا كمقود الدراجة؟»

وضحك السيد من كلِّ قلبه:

ـ «أربعة أيام بلا حشيش تقصير أساء إلى كيمياء جسدك.. أحدثك عن سيارة مرسيدس نأخذها الى مصر وتحدثنى عن شارب أكرم»

فقال له حشمت وهو يشد الملاءة على جسده ويوليه ظهره:

ـ «أكرم هذا هو الأهم.. دعه يرتب لنا جلسة أخرى.. تصبح على خير»

* * *

ومن كثرة كرمه تحول إلى صيد ثمين فى نظر أكرم ومن حوله من الرجال. وكان السيد النحال قد هيأ رداره اللاقط للإمساك بالإشارات الضوئية التى تصدر من أمخاخ محيطيه وهم يفكرون فى استغلال ذلك المصرى السخى المنتعش، المثير للتأمل، العازف عن الخمر وبنات الهوى، والمعجون فى خميرة الحشيش، وجاءت اللحظة المناسبة لكسبهم أو إغرائهم بالكسب منه عندما قال أمامهم: «**لو علمتم علاقتى بالحشيش لما تعجبتم، فهو لعبتى فى مصر، وسأدفع غاليًا لمن يأخذنى إلى مصدره هنا.. الأصناف لديكم مذهلة.. حرام ألا يتمتع بها زبائنى فى مصر**»

وهكذا تهيأت لهم الفرصة لحسن استغلال ضيفهم العجيب، فشمروا عن سواعدهم كلٌّ بما يقدر عليه وتولى أكرم قيادتهم بدءًا من لقاء حذر بتاجر كبير هاله أن يرى زبونه المصرى الجديد شابًّا يافعًا سرعان ما وضع يده على جسارته وهم ينقلون له كلماته الرزينة وخطته المجنونة لنقل البضاعة: «سأحشو بها كل فراغات سيارتى المرسيدس»

* * *

وعلى ظهر الباخرة استقرت السيارة المرسيدس السوداء فى مكانها بالمرآب، وقد زاد وزنها عن وزن مثيلاتها بأكثر من نصف طن من المخدرات الفاخرة، فما لم تستوعبه الفراغات المبطنة والقيعان الملحومة تم اخفاؤه داخل بضائع منتقاه بالحقيبة الخلفية والإطار الاحتياطى وحشوات المقاعد وبطانة السقف.. ومن كوة قمريته الأنيقة راح حشمت بركات يرنو إلى البحر متثائبًا وقد زاد وزنه هو الآخر عدة كيلو جرامات فى أحد عشر يومًا قضاها بين الكئوس والأطباق والاسترخاء اللذيذ.. وبجواره كان السيد النحال هادئًا يصفق لنفسه وهو يرى أن خطته تسير قدمًا فى خطها المرسوم، عدا فاتورة الفندق التى أشارت قيمتها المزعجة فجأة إلى أن حشمت لم يرحم نفسه من الخمر ولم يرحمه.. من تكاليف التليفونات..

وفجأة سمعا صياحًا عاليًا وجلبة.. «**ما هذا؟.. هل الباخرة تغرق؟**» هكذا هتف حشمت بركات.

انتفض السيد وأمسك بمقبض الباب الذى واربه.. وراح يرهف السمع.. ثم نادى على أناس يهرولون من المشاية إلى السطوح: «ماذا حدث.. هل هناك حريق؟»

تعالى صوت المجيب حتى طرق سمع حشمت:

ـ «جمال عبد الناصر.. مات»

ـ «كيف عرفتم؟»

ـ «الركاب فى الكافيتريا على السطوح يسمعون الراديو.»

هرولا إلى سطح الباخرة حيث الكافيتريا والركاب والصمت الرهيب وراديو يبث تلاوة القرآن الكريم ثم إعادة متكررة للنعى المؤثر الذى يلقيه النائب أنور السادات بصوت ملىء بالأسى والشجون يعلن للناس موت أعز الرجال.. وعندما عادا إلى غرفتهما لم يستطع السيد أن يفسر سرّ انفجار حشمت بركات فى بكاء مفاجىء.. فالذى يعرفه أن هذا الموتور لم يكن ينتظر سماع هذا الخبر فقط بل تعداه إلى محاولة صنعه.. ألم يقل بنفسه لفوزية إنهم يسعون للحصول على هذا الملك؟ إذن، فما سر هذه الدموع؟

ـ «لم البكاء؟.. أنت غادرت مصر مواطنًا عاديًّا وستعود إليها ملكًا.. فلم البكاء؟»

ولاحت على محيا الموتور ابتسامة النصر.. ثم تحول إليه وراح يصب عليه لعناته لاختياره موعد هذه الرحلة التى وجد نفسه فيها معلقًا بين السماء والبحر فى وقت كان يجب فيه أن يشهد هذا الحدث الجليل.. الحدث الذى يتجه فيه التاريخ نحوهم بخطواته الأولى.. ويفتح لهم بوابته المقدسة.. وشرخ ابن النحال إلى غايته بمشوار ذهب فيه إلى قبطان الباخرة، ثم عاد ليقول له:

ـ «القبطان عرف منى من أنت.. وأبدى استعداده لتذليل اتصالاتك بالميناء أو بأىّ مكان بالقاهرة.. أعطيته بيانات سيارتك.. قال إنه سيوصى على تجهيز أوراقها من الآن حتى تنطلق بها فور وصولنا إلى الميناء.»

وبدلًا من أن يتحرك من فوق سريره جاءه القبطان بنفسه.. ثم أتوا له بجهاز التليفون.. ووقفوا بتأدب وخشوع خارج الغرفة، فارتدى حشمت بركات ثوب المهابة وزيّنه برداء التواضع وهو يهمس لنفسه «هاهى الأيام الهنيئة تهل على بلا استئذان.. وها

هى البوابات الموصدة فى مدخل مجرى التاريخ تفتح، وأولها بوابة الميناء»

* * *

وفى الميناء وقف صف من رجاله المخلصين رافعين أيديهم بالتحايا.. وعرف أن:

«رخصة السيارة جاهزة يا فندم.. وقمنا بتقسيط الجمرك» وهنا عرف معنى اختصار الزمن.. ووثق أن هذا الزمن لا بد أن يقف فى طابور المخلصين له فيتنازل عن دقته الشديدة واستحكاماته المكلفة، فللكبار شأنهم، ولا يصح أن يستووا عنده شأن الصغار. أشار لرجاله أن يلحقوا به خلف سيارته التى سيقودها بنفسه:

ـ «واتركوا السيد النحال معى ليسلينى طوال الطريق»

وفى الطريق عرف السيد نوع التسلية التى ينشدها صديقه حشمت الذى سأله:

ـ «هل تحدث معك أحد من رجالى فى الميناء؟»

ـ « الحديث العادى.. السلام.. والسؤال عن الصحة»

ـ «ألم يقل لك أحدهم إن فوزية قد ماتت؟»

اعتدل السيد فى مواجهته ونظر إليه بذهول: «ماتت؟.. متى؟.. وكيف عرفت أنت هذا الخبر؟»

ـ «كان لدى الوقت الكافى فى الفندق لاستخدام التليفون..»

ـ «هذا واضح من الفاتورة.. فمع من تحدثت..؟ ولماذا لم تبلغنى بهذا الخبر ونحن هناك»

ـ «كيف أبلغك بخبر لن تصدقه.. فأنت سافرت إلى اليونان لتعالج نفسك من العقم، فى حين أن زوجتك ماتت فى عملية إجهاض؟»

ـ «عندما أبلغتْنى بحملها عرفتُ أنك الأب غير الشرعى لجنينها.. فأجْلستها فى منزل أهلها حتى أعود»

ـ «قل حتى تتصّرف فى مجوهراتك المسروقة..»

ـ «لم يكن أحد ليعوقنى عن تصريف مجوهراتى»

ـ «ولم يكن هناك ما يمنعك أن تحيطنى علمًا بما تفعله»

ـ «لم أكن أضمن موافقتك على استبدال المجوهرات بحشيش»

ـ «وهل البديل أن تكتب باسمى سيارة محشوة بالمخدرات دون علمى؟»

ـ «تعمدت ألا تقاسمنى الخوف لأضمن هدوء أعصابك»

ـ «ولكنك لم تقاسمنى المسئولية..» ثم صمت قليلًا وأردف:

ـ «كما حملت الهانم مسئولية تزييف مجوهرات صديقاتها الأميرات»

ـ «كان كل همى تدبير رأس مال ضخم حتى أفاجئك به»

ـ «على حساب سمعة الهانم.. الكويت مليئة بأخبار زوجة النائب اللصة»

ـ «الكبار معرّضون للشائعات.. والشائعات إذا زادت قل مقعولها.. وفوزية ماتت»

ـ «موتها لا يعفى زوجها من جرائمهما المشتركة.. حكمت وبشاير.. والمجوهرات»

ـ «ومن قال إنى على علم بكل ما تفعله زوجتى؟.. عبد الناصر لم يدفن جثمانه بعد.. فهل يعلم أحد أن فوزية كانت تدس له السم بإيعاز منك؟»

ألمت بحشمت بركات هزة مفاجئة.. وضغط خفيفًا على فرامل السيارة.. فهدأت سرعته بشكل واضح.. طابور السيارات خلفه أصابه القلق.. أمعن النظر فى وجه صديقه.. وبعث إليه بابتسامة خفيفة بها استخفاف وتحد:

ـ «أتحاول مساومتى؟»

ـ «وأنت فى وضعك الجديد أكون غبيًّا لو فكرت فى ذلك»

ـ «إذن، فهل تخيفنى بما تعرفه عن موضوع السم؟»

ـ «بكاؤك الشديد على وفاته كان كافيًا ليغفر الله لك هذا الذنب»

ـ «أتغازلنى بكلام الشعر أيها الأفاق»

ـ «لم أعد شاعرًا، فشيطان الشعر هجرنى منذ أن جاء فوجدنى شيطانًا مثله»

ـ «وغادر الأرض وتركك نائبًا عنه..»

ـ «نائبان.. أنا وأنت»

ـ «قل ثلاثة فأمير هو الثالث المبدع فى الوساخة»

ـ «إذن، فأنت تحمل خبرًا عنه»

ـ «خبر بسيط.. تسبب فى انتحار محاسب فى شركته»

ـ «أغلب الظن أن اسمه نجيب أمين النجار»

ـ «بالضبط.. الشياطين كلها على علم بضحاياهم ..»

وراح يقص له حكاية موت نجيب النجار فى ليبيا برصاصة من مسدسة أطلقها على نفسه.. ففريق العمل الذى ذهب إلى ليبيا بدعوة من حكومة الثورة الليبية لإنشاء مكاتب رئاسية بتكليف مباشر للشركة ترأس أمير النحال هذا الفريق.. وكان من بين أفراده نجيب أمين النجار المحاسب المسئول عن أمانة العهدة المالية.. وحين دخل نجيب قادمًا من البنك ودخل مكتب أمير بحقيبته المليئة بالبنكنوت الذى تزيد قيمته عن مائة ألف جنيه ترك الحقيبة لدقائق حتى ينتهى من صلاته فى غرفة المكتب المجاورة.. وحين كان يغادر الصلاة كان أحد رجال أمير قد أسرع بمغادرة بوابة طرابلس متجهًا إلى القاهرة بذات الحقيبة.. هكذا سرق أمير الحقيبة فى دقائق وسربها فى دقائق وغادر مكتبه إلى الحوش الخارجى يتحدث مع من وجدهم هناك لينطلق معهم نحو مكتبه مرة أخرى على إثر صياح نجيب النجار «الفلوس.. الفلوس.. الحقيبة.. الحقيبة»

وإمعانًا فى إذلال نجيب النجار وجه إليه تهمة الاختلاس والادعاء الباطل بسرقة أموال الشركة.. لينهى نجيب حياته بيديه فى مسكنه من وطأة العذاب.. ويستقبل أمير الخبر دون أن يهتز له رمش عين..

واستقبل السيد النحال هو الآخر هذه الحكاية بنفس برود فاعلها أمير، وكان استقباله لها يختلف عن الآخرين لعلمه الأكيد بالسبب الكامن خلفها ودوافعها المتمثلة فى قنبلة من الحقد الذى عاش وظل طازجًا فى قلب أمير حتى قام بتفجيره ـ أو تفجيرها ـ فى الوقت المناسب..

«اثنان كلٌّ منهما خلع عن الآخر شيئًا يخصه.. واحد خلع عن الآخر سترته ، والآخر خلع عن الأول حياته..» هكذا تمتم سيد قبل أن يعود إلى صديقه الجبار الذى قال له:

ـ «أمير مثلك.. يتمتع بقلب بارد.. وروح مدمرة»

ـ «لذا، فقد وضعنا أشرف بركات فى سلة واحدة»

ـ «لقد جاء زمنكما الملائم، فلتنطلق طيور الحرية وتغادر أقفاصها التعيسة»

ـ «وأىّ تعاسة أكثر من أن تقترض زوجة النائب مجوهرات تكمل بها زينتها..»

ومد يده فى تابلوه السيارة وأخرج علبه من القطيفة الحمراء..

ـ «جئت لها بهذا العقد الثمين.. هدية.. كم كان يقهرنى أن أراها تتسول زينتها»

وابتسم حشمت بركات فى خبث :

ـ «رغم ثقتى أنه عقد ليس مزيفًا.. لكنى واثق أنك تقدمه بمشاعر مزيفة»

ـ «تزييف المشاعر جريمة من الصعب الإمساك بها.. وعزائى هو أنى برىء من تلك التهمة لأننى اشتريته لحرم النائب دون أن أعلم أنها صارت حرم الرئيس.. فكيف أقدمه لها؟»

ـ «جىء برفقتى.. لتقدم لك العزاء فى فوزية»

ـ «أليست حاقدة عليها؟»

ـ «لم تصلها أخبار فضيحة المجوهرات بعد..»

ـ «ولن تصلها.. الشائعات تستغرق وقتًا طويلًا حتى تصل إلى صاحبها، وقد لا تصله، مبروك عليها هذا العقد الثمين.. ومبروك عليك هذه السيارة المرسيدس»

وما إن دخلا العاصمة الحزينة حتى ذابت سيارتهما فى أمواج الجماهير الزاحفة من أنحاء البلاد تسعى لسفح دموعها فى الشوارع والدروب وعند الأعتاب وخلف الأبواب على رجل كان معهم وفقدوه.. رجل قال عنه نائبه أنه: أعز الرجال.

وعندما أطل نفر من هذه الجماهير على هذا الرجل الأسمر الذى يقود سيارة سوداء مغلقة النوافذ حفاظًا على الهواء المكيف بداخلها قال واحد منهم:

ـ «هذا الرجل يشبه الرئيس القادم»

بادر الجميع بالتلويح له.. فبادلهم الرجل الأسمر التحية فى نفس اللحظة التى كان يميل فيها على شاب أنيق يجلس بجانبه.. ليقول له عن شىء ما لم يكن له علاقة بفقيدهم العزيز أو بتحاياهم البريئة، وإنما كان له علاقة بـ:

«السيارة.. سأتركها لك.. صرّف الحشيش بمعرفتك.. واحفظ لى حقى.. حقى هو النصف..»